# الفصل الخامس

## ابن قتيبة
## وكتابه الشعر والشعراء

obeikandl.com

obeikandl.com

ابن قتيبة أبومحمد عبدالله بن مسلم الدينورى (ت 276هـ)، علم من أعلام الثقافة العربية في القرن الثالث الهجري أوواحد من كتابها الموسوعيين الذين تركوا مؤلفات شتى فى معارف مختلفة، وهى سمة اشتهر بها الكثيرون من أمثال الجاحظ وأبي حيان التوحيدي.

**وقد أشار بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي إلى عدد من مؤلفاته منها :**

1 – عيون الأخبار

2 – الشعر والشعراء

3 - المعارف

4 – معانى الشعر

5 – أدب الكاتب

6 – التسوية بين العرب والعجم

7 – تأويل مختلف الحديث

8 – تأويل مشكل القرآن (انظر بروكلمان، تاريخ الأدب العربي 2 /222 ومابعدها)

ونعرض في هذه الصفحات لكتابه الشعر والشعراء، وكما يتضح من عنوانه هو كتاب يحمل شقين الأول الشعر وما يتضمنه من بحث فى فهم الشعر وأحواله، والشق الثانى يتعلق بتراجم



obeikandl.com

الشعراء، ويحدد ابن قتيبة منهجه في هذا الكتاب، ويقول إنه كتاب يشتمل على التعريف بالشعراء وأزمانهم وأحوالهم في أشعارهم، وعن مكانة كل شاعر بين سابقيه ولاحقيه، ويحدد من عرف من الشعراء باسمه أو كنيته أو لقبه، ثم بين أنه قصد من الشعراء المشهورين الذين يعرفهم أهل الأدب، أما ما دون ذلك فقد أهمل، وهو إهمال من وجهة نظره له ما يبرره ؛ فالشاعر الذي يهمله غير معروف له نسب أو أخبار معروفة أو نادرة أو أشعار تستحق الوقوف عندها، يقول :

"قال أبو محمد: وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء، الذين يعرفهم جل أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب، وفي النحو، وفي كتاب الله عز وجل، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فأما من خفي اسمه، وقل ذكره، وكسد شعره، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص، فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة. إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل، ولا أعرف لذلك القليل أيضاً أخباراً من هذه الطبقة، وإذ كنت أعلم أنه لا حاجة بك إلى أن أسمى لك أسماء لا أدل عليها بخبرٍ أو زمانٍ، أو نسبٍ أو نادرةٍ، أو بيتٍ يستجاد، أو يستغرب.

ولعلك تظن رحمك الله أنه يجب على من ألف مثل كتابنا هذا ألا يدع شاعراً قديماً ولا حديثاً إلا ذكره ودلك عليه، وتقدر أن يكون الشعراء بمنزلة رواة الحديث والأخبار، والملوك والأشراف،

الذين يبلغهم الإحصاء، ويجمعهم العدد والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام، أكثر من أن يحيط بهم محيطٌ أو يقف من وراءِ عددهم واقفٌ، ولو أنفد عمره في التنقير عنهم، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال. ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعرٌ إلا عرفه، ولا قصيدةٌ إلا رواها " ( الشعر والشعراء 1/ )

أى إن هناك من الشعراء من يكثر أخباره، أو ارتبطت أشعاره بمواقف مشهورة، أو يحفظ له النحاة أبياتا يحتكمون إليها، وهم الأولى فى الذكر، وهو ما يمكن أن يلحظه القارئ للتراجم الموجودة عن فحول الشعراء المشهورين من أمثال امرئ القيس وزهير وحسان والحطيئة ....وغيرهم.

وهناك من الشعراء من يكتفى بذكر اسمه وقبيلته ثم يتوقف أمام قصيدة من قصائده أو أكثرإما لشهرتها أو لجودتها على نحو ما ترجم للشاعر الصلتان العبدى.

ثم يشرح ابن قتيبة فكرة أن الهدف من الكتاب ليس الاستقراء الكامل لكل الشعراء فى العربية، موضحا أن الأفراد يعجزون عن جمع شعر قبيلة واحدة دون أن يفوتهم شاعر أو قصيدة، من ثم كان قصده أن يترجم للمشهورين من الشعراء.

أما البناء الخاص بالكتاب فقد بدأ بمقدمة نظرية مهمة تمثل الشق الأول من الكتاب ؛ أعنى مقدمته عن الشعر، وأهم ما جاء فيها حديثه عن كون الشعر موهبة لا تقتصر على طائفة من

البشر فى زمان محدد أو مكان معلوم، وأن هناك من المحدثين من سبقوا إلى أشياء، وهناك من المتقدمين من تفوق ؛ أى إن التمييز بين شعر المتقدمين والمحدثين مقياسه الجودة وليس أسبقية الزمان، يقول " ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كلٌ شاعر مختاراً له، سبيل من في قلد، أو استحسن باستحسان غيره ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره. بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حظه، ووفرتُ عليه حقه فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوماً دون قومٍ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً في عصره، وكل شرفٍ خارجيةً في أوله، فقد كان جريرٌ والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين. وكان أبو عمر وابن العلاء يقول لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته

ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا، كالخريمي والعتابي والحسن بن هانىءٍ وأشباههم. فكل من أتى بحسنٍ من قول أو فعل ذكرناه له، وأثينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله، ولا حداثة سنه. كما أن الردىء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه"

ثم يبين أنه تحدث عن قضايا أخرى متعلقة بالشعر فى كتبه الأخرى فلم يذكرها هنا، منوها إلى مواضعها، يقول :.

وكان حق هذا الكتاب أن أودعه الأخبار عن جلالة قدر الشعر وعظيم خطره، وعمن رفعه الله بالمديح، وعمن وضعه بالهجاء وعما أودعته العرب من الأخبار النافعة، والأنساب الصحاح، والحكم المضارعة لحكم الفلاسفة، والعلوم في الخيل، والنجوم وأنوائها والاهتداء بها، والرياح وما كان منها مبشراً أو جائلا، والبروق وما كان منها خلباً أو صادقاً، والسحاب وما كان منها جهاماً أو ماطراً، وعما يبعث منه البخيل على السماح، والجبان على اللقاء، والدنى على السمو غير أني رأيت ما ذكرت من ذلك في كتاب العرب كثيراً، كافياً، فكرهت الإطاعة بإعادته، فمن أحب أن يعرف ذلك، ليستدل به على حلو الشعر ومره. نظر في ذلك الكتاب، إن شاء الله تعالى"

ثم تناول بعد ذلك أقسام الشعر مبينا أن التفاوت يقع فى الشعر من حيث اللفظ والمعنى، فمن الشعراء من يحسن لفظه ويقصر معناه، ومنهم من يحسن لفظه ومعناه، ومنهم من يقصر لفظه ويحسن معناه، ومنهم من يتأخر لفظه ومعناه، ثم يردف ذلك بحديث طويل عن الأحوال التى تصاحب كتابة أو قول القصيدة عند الشاعر، وبعد ذلك يأتى القسم الثانى من الكتاب يترجم فيه لمائتين وستة شعراء يبدأ بامرئ القيس وينتهى بأشجع السلمى .

وفيما يلى نقدم نموذجين لترجمته للشعراء الأول الشاعر لقيط بن معمر، وهو يمثل النموذج الذى يرتبط بكثرة الأخبار مع جودة الشعر، والنموذج الثانى الصلتان العبدي وهويتوقف أمام قصيدتين مشهورتين له

(1) لقيط بن معمر

هو لقيط بن معمرٍ، من إيادٍ، وكانت إيادٌ أكثر نزارٍ عدداً، وأحسنهم وجوهاً، وأمدهم وأشدهم وأمنعهم، وكانوا لقاحاً لا يؤدون خرجاً، وهم أول معدىٍّ خرج من تهامة، فنزلوا السواد، وغلبوا على ما بين البحرين إلى سنداد والخورنق، وسنداد نهرٌ كان بين الحيرة إلى الأبلة، وكانوا أغاروا على أموالٍ لأنوشروان فأخذوها، فجهز إليهم الجيوش، فهزموهم مرةً بعد مرةٍ، ثم إن إياداً ارتحلوا حتى نزلوا الجزيرة، فوجه إليهم كسرى بعد ذلك ستين ألفاً في السلاح، وكان لقيط متخلفاً عنهم بالحيرة، فكتب إليهم:

سَلاَمٌ في الصَّحِيفَة من لَقِيطٍ ... إلىَ مَن بالجزيرة من إيادِ
بأَنَّ اللَّيْثَ كِسْرَى قد أَتَاكُمْ ... فلا يَشْغَلْكُمُ سَوْقُ النِّقَادِ
أَتاكم مِنْهُمُ سِتُّونَ أَلْفاً ... يَزُجُّون الكَتَائِبَ كالجَرَادِ
على حَنَق أَتَيْنَكُمُ فهذَا ... أَوَانُ هَلاَكِكُمْ كهَلاَكِ عَادِ

فاستعدت إيادٌ لمحاربة جنود كسرى، ثم التقوا، فاقتتلوا قتالا شديداً، أصيب فيه من الفريقين، ورجعت عنهم الخيل، ثم اختلفوا بعد ذلك، فلحقت فرقةٌ بالشأم، وفرقةٌ رجعت إلى السواد، وأقامت فرقةٌ بالجزيرة.

وفي هذه القصة يقول أيضاً لقيطٌ في قصيدته "يا دارَ عَبْلَةَ من مُحْتَلِّهَا الجَرَعَا"

يا لَهْفَ نَفْسِيَ إنْ كانت أُمُورُكمُ ... شَتَّى وأُبْرِمَ أَمْرُ الناس فاجْتَمَعَا
أَحْرَارُ فارِسَ أَبْنَاءُ المُلُوكِ لهم ... من الجُمُوعِ جُمُوعٌ تَزْدَهِي القَلَعَا
فهمْ سِرَاعٌ إليكم بَيْنَ مُلْتَقِطٍ ... شَوْكاً وآخَرَ يَجْنِي الصَّابَ والسَّلَعَا
هو الجَلاَءُ الَّذِي تَبْقَى مُذَلَّتُهُ ... إنْ طارَ طائرُكم يوماً وإنْ وَقَعَا
قُومُوا قِيامَاً على أَمْشَاطِ أَرْجُلِكُمْ ... ثم افْزَعُوا قد يَنَالُ الأَمْنَ مَنْ فَزِعَا
وقَلِّدُوا أَمْرَكُمْ لِلَّهِ دَرُّكُمُ ... رَحْبَ الذِّرَاعِ بِأَمْرِ الحربِ مُضْطَلِعا
لا مُتْرَفاً إنْ رَخاءُ العَيْشِ ساعَدَهُ ... ولاَ إذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ به خَشَعَا
ما زال يَحْلُبُ دَرَّ الدَّهْرِ أَشْطُرَهُ ... يَكُونُ مُتَّبِعاً طَوْراً ومُتَّبَعَا
حَتَّى اسْتَمَرَّتْ على شَزْرٍ مَرِيرَتُه ... مُسْتَحْكِمَ السِّنِّ لاَ قَحْماً ولا ضَرَعَا

(2) الصلتان العبدي

هو قثم بن خبيئة، من عبد القيس.

واجتمع إليه في الحكم بين الفرزدق وجريرٍ، فقال:

أَنا الصَّلَتَانِيُّ الذي قد عَلِمْتُمُ ... مَتَى ما يُحَكَّمْ فَهْوَ بالحَقِّ صادعُ
أَتَتْنِي تَميمٌ حينَ هابَتْ قُضاتُها ... وإنِّي لَبالفَصْلِ المُبَيَّنِ قاطِعُ
كما أَنْفَذَ الأَعْشَى قَضِيَّةَ عامِرٍ ... وما لِتَميمٍ في قَضَائي رَوَاجِعُ
ولم يَرْجِعِ الأَعْشَى قَضِيَّةَ جَعْفَرٍ ... وليس لحُكْمِي آخرَ الدَّهْرِ راجعُ

سأَقْضي قَضَاءً بَيْنَهُمْ غير جائرٍ    فهَلْ أَنْتَ للحُكْمِ المُبَيَّنِ سامعُ
قَضاءَ امْرِئٍ لا يَتَّقِي الشَّتْمِ منهمُ    وليس له في المدْحِ منهمْ مَنافعُ
قضاءَ امرئٍ لا يرتشي في حُكُومةٍ    إِذَا مال بالقاضي الرُّشَا والمَطَامعُ
فإِنْ كُنْتُما حَكَّمْتُماني فأَنْصِتَا    ولا تَجْزَعَا ولَيرْضَ بالحَقَّ قانعُ
فإِنْ تَرْضَيَا أَو تَجْزَعَا لا أُقلْكُما    وللحَقِّ بين الناسِ راضٍ وجازِعُ
فأُقْسِمُ لا آلُو عَنِ الحَقَّ بَيْنَهُمْ    فإِنْ أَنا لم أَعْدِلْ فقُلْ أَنْتَ ضالِعُ
فإِنْ يَكُ بَحْرُ الحَنْظَلَّيينِ واحداً    فما تَسْتَوِي حيتَانُهُ والضَّفادعُ
وما يَسْتَوِي صَدْرُ القَنَاة وزُجُّها    وما يَسْتَوِي شُمُّ الذُّرَى والأَكارِعُ
وليس الذُّنَابَى كالقُدَامَى وريشِهِ    وما تَسْتَوِي في الكَفِّ منْكَ الأَصابعُ
أَلاَ إِنَّما تَحْظَى كُلَيْبٌ بشِعْرِها    وبالمَجْدِ تَحْظَى دارِمٌ والأَقارِعُ
ومنهم رؤوسٌ يُهْتَدى بصُدورِها    والأَذْنابُ قِدْماً للرؤوس تَوَابعُ
أَرَى الخَطَفَى بَذَّ الفَرَزْدَقَ شِعْرُهُ    ولكنَّ خَيْراً من كُلَيْب مُجاشعُ
فَيَا شاعراً لا شاعرَ اليَوْمَ مثْلُهُ    جَرِيرٌ ولكِنْ في كُلَيب تَوَاضُعُ
جَرِيرٌ أَشَدُّ الشاعرَيْنِ شَكيمَةً    ولكنْ عَلَتْهُ الباذخاتُ الفَوَارعُ
ويَرْفَعُ من شِعْرِ الفَرَزْدَق أَنَّهُ    له باذِخٌ لِذِي الخَسيسَة رافعُ
وقَدْ يُحْمَدُ السَّيفُ الدَّدانُ بجَفْنِهِ    وتَلْقاهُ رَثّاً غِمْدُهُ وهُوَ قاطعُ
يُنَاشِدُني النَّصْرَ الفَرَزْدَقُ بعدما    أَلَحَّتْ عليه من جَرِيرٍ صَوَاقعُ
فقُلْتُ له إِني ونَصْرَكَ كالذي    يُثَبِّتُ أَنْفاً كَشَّمَتْهُ الجَوَادعُ
وقالَتْ كُلَيبٌ قَدْ شَرُفْنا عليكمُ    فقُلْتُ لها سُدَّتْ عليكِ لَمطَالعُ

وقال جريرٌ الصلتان:

أَقُولُ ولم أَمْلِكْ سَوَابقَ عَبْرَةٍ    متى كان حُكْمُ الله في كَرَبِ لنَّخْلِ

obeikandi.com

والصلتان هو القائل:

أَشـابَ الصَّـغيرَ وأَفْنَـى الكَـبيِ ... رَ كَـرُّ اللَّيَـالِى ومَـرُّ العَشِـى
إِذَا هَرَّمَـتْ لَيْلَـةٌ يَوْمَهَـا ... أَتَـى بَعْـدَ ذلـكَ يَـوْمٌ فَتِـى
نَـرُوحُ ونَغْـدُو لحاجاتنـا ... وحاجَـةُ مَـنْ عـاشَ لا تَنْقَضِـى
تَمُـوتُ مَـعَ المَـرْءِ حاجاتُـهُ ... وتَبْقَـى لـه حاجَـةٌ مـا بقَـىِ
إِذا قُلْـتَ يَوْمـاً لِمَـنْ قـد تَـرَى ... أَرُونِـى السَّـرىَّ أَرَوْكَ الغَنِـى
أَلَـم تَـرَ لقمـانَ أَوصَـى بَنيـه ... وأَوْصَـيْتُ عَمْـراً ونعْـمَ الوَصِـى
بُنَّـى بَـدَا خَـبْءُ نَجْـوَى الرجـالِ ... فكُـنْ عند سـرِّكَ خَـبْءَ النَّجِـى
وسِـرُّكَ مـا كـان عنْـدَ امْـرِىءٍ ... وسِـرُّ الثَّلاَثَـةِ غَيْـرُ الخَفِـى
فكُـنْ كـابنِ لَيْـلٍ علـى أَسْـوَد ... إِذَا مـا سَـوَادٌ بليـلٍ خُشِـى
فكـلّ سـوادٍ وإِنْ هبْتَـهُ ... مـن الليـل يَخْشَـى كمـا تَخْتَشـى
أَرِدْ مُحْكَـمَ الشِّـعْرِ إِنْ قُلْتَـهُ ... فـإِنَّ الكـلامَ كـثيرُ الـرَّوِى
كما الصَّمْتُ أَدْنَى لبعض اللِّسَا ... نِ وبعـضُ الـتكلُّمِ أَدْنَـى لِعِـى

obeikandl.com